التطور السياسي لتادلة
في العصر الوسيط

الدكتور محمد حقي

يبدأ التاريخ الإسلامي لجهة تادلة-أزيلال ومعه تاريخ العصر الوسيط؛ حسب التحقيب الأوربي، بوصول أول الفاتحين المسلمين عقبة بن نافع في النصف الثاني من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي. لكن الرجوع إلى المصادر التاريخية يظهر بوضوح قلة وندرة الأخبار عن المنطقة وأحيانا انعدامها، وإذا كان التفسير البسيط يقتضي ربط ذلك بإهمال المؤرخين وغياب الكتابات المحلية، فإن طبيعة المنطقة الجبلية وعزلتها وهامشيتها بالنسبة للعاصمتين التاريخيتين –فاس ومراكش - في العصر الوسيط يجعلها أقل فعالية في التاريخ المغربي مع استثناء بالنسبة للعصر الموحدي.

عشية الفتح الإسلامي كانت المنطقة مقسمة بين ثلاث مجموعات قبلية: زناتة في الشمال وفي الأراضي الوسطى الجبلية تنتشر صنهاجة الشمال وجنوب واد العبيد تسكن هسكورة المصمودية القوية. وكان وصول عقبة إلى المنطقة في إطار حملته الأولى على المغرب عام 62هـ/680 م[1]، واخترقها مرتين إذ مر منها إلى بلاد دادس بدرعة عبر الممرات الجبلية، وفي المرة الأولى خضعت له صنهاجة وبعض هسكورة، وفي طريق إيابه إلى القيروان قاتل بعض فروع هسكورة بألمزح ثم سأل عن زعيم هسكورة فدل على حرما بن طوطس فدعاه فاستجاب للإسلام بإيم نتمدا[2]. وبعد مغادرته ارتدت القبائل عن الإسلام

---

[1]- ابن عذاري، تحقيق ج.س. كولان إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج1، ص.27-28.

2- التوفيق أحمد، المجتمع المغربي في القرن 19(إينولتان 1850-1912)، منشورات كلية الآداب- جامعة محمد الخامس، الرباط،1983، ص.58.

كما حصل مع باقي قبائل المغرب دون أن يعني ذلك عدم بقاء أي أثر للإسلام. وللأسف فالمصادر لا تنقل أي شيء عن إسلام المنطقة النهائي؛ أو بالأحرى دخولها تحت لواء الدولة الأموية لأن اليهود والنصارى والوثنيون استمروا في الوجود هناك بكثرة حتى بعد مرور حوالي قرن من الزمن[3]، الذي يفترض أنه حصل أثناء حملة موسى بن نصير حوالي عام 86هـ/ 705 م. كما أنها لا تتحدث عن دور المنطقة؛ وخاصة الجزء الزناتي، في ثورة المغاربة الخارجية عام 122هـ/ 741م. لكن الشيء المؤكد هو استقلالها عن الأمويين وعودتها إلى الحكم القبلي كما هو مرجح جدا.

بعد بيعة إدريس الأكبر بوليلي عام 172هـ/ 789م "سار إلى تادلة ففتح معاقلها وحصونها(...) فأسلم جميعهم على يديه."[4] ويجب أن يفهم بالإسلام هنا أولا، خضوعهم له وثانيا، إسلام بعض الذميين والوثنيين بل وحتى التحاق بعض الخوارج بمذهبه. وفي السنة الموالية نظم حملة أخرى على بلاد فازاز[5]، وقد تكون وصلت إلى شمال المنطقة وبذلك صارت تادلة تابعة للأدارسة. ولما تولى إدريس الثاني توسع أكثر نحو الجنوب فقاد حركة سنة 197هـ/812م ضم بها سائر بلاد المصامدة[6] ومنها بالطبع الجزء الجنوبي من المنطقة حيث قبائل هسكورة، وبذلك صارت كل الجهة تابعة للأدارسة. ولما تولى محمد بن إدريس السلطة وقسم البلاد بين إخوته كانت الجهة من نصيب[7]:

- أحمد حاكم مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادلا.

3- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط، 1973، ص.20 والناصري، الإستقصا، تحقيق أحمد الناصري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001، ج2، ص.21.

4- نفسه ونفسه.

5- نفسه ونفسه.

6- نفسه، ص.50 ونفسه، ج2، ص..37

7- نفسه، ص.51 ونفسه، ج2، ص.43 وابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج2، ص.376

- عبد الله والي أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة (منها هسكورة) وبلاد لمطة والسوس الأقصى.

وربما، يكون عيسى حاكم سلا وشالة وأزمور المتمرد والمطرود من أرضه على يد أخيه عمر[8] قد التجأ إلى المنطقة وخلق إقطاعة في أيت عتاب حيث يوجد ضريحه حاليا.

ولن تجود علينا المصادر بأكثر من هذا حول الفترة الإدريسية التي استمرت حتى هيمنة الأمويين على المغرب في الثلث الأخير من القرن 4هـ/ 10م، ولن نعرف موقفها من الصراع الأموي - الفاطمي ولا حتى حياتها تحت الأمويين. وفجأة عند وصول المرابطين إلى المغرب نكتشف أن بني يفرن بزعامة المهدي بن توالى صاحب قلعة مهدي في بلاد فازاز ومغراوة أغمات بزعامة لقوط بن يوسف يقتسمون مجال الجهة[9].

واجه أبو بكر بن عمر اللمتوني أولا لقوط في أغمات وهزمه ففر أمامه والتجأ إلى تادلة في حمى بني يفرن لكنه لحقه وقتله وضم تادلة[10]. وفي عام 467هـ/1075م، أسند يوسف بن تاشفين ولاية تادلة ومعها أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وبلاد تامسنا لابنه تميم[11]. ويظهر أن المنطقة قسمت بين أربعة حكام[12]:

- أبو بكر بن الجوهر في حصن هسكورة.
- ويدّاليم في حصن تاكزورت.
- إبراهيم بن سامّدن في حصن داي.

---

[8]- الناصري، المصدر السابق، ج2، ص.45.

9- ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص.18-19 وابن أبي زرع، المصدر السابق، ص.129 وابن خلدون، العبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ج6، ص.244.

10- ابن أبي زرع، ص.129 وابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص.244 وبوسلام، محمد بن البشير، تاريخ قبيلة بني ملال، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1991، ص.45 وابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص.386.

[11]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص.142 وبوسلام، المصدر السابق، ص.45.

[12]- البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971، ص.92.

- يحي بن سافور في حصن تاكرارت.

ومن هؤلاء سيأخذها الموحدون.

بدأ اتصال الموحدين بالجهة مبكرا إذ تذكر رواية أن عبد المومن بمجرد ما بويع بعد وفاة المهدي جرد حملة على تادلة عام 526هـ/1132م، وهي رواية مشكوك فيها وإن كانت حصلت فمن أجل السبي والغنيمة - كما يقول ابن خلدون[13]. لكن ضم الجهة تم بواسطة الحملة الكبرى التي نظمها عبد المومن بين نهاية عام 534 أو بداية 535هـ/1141م وعام 541هـ/1146م تاريخ فتح مراكش، حيث ضمها في سنتها الأولى كما وصف ذلك البيذق شاهد العيان[14] (تاساوت - دمنات- بنو نصر- بكوية- واويزغت- تيزي- تاكرارت داود بن عائشة- داي)، وبذلك انضمت هسكورة وصنهاجة ودخلت ضمن القبائل الموحدية خاصة الأولى، كما صاهرت عبد المومن بزواجه من الصنهاجية أم السيد أبي سعيد بالنسبة للثانية، بل وصاروا من جيشه وسيبقون أوفياء للدعوة الموحدية حتى سقوطها.

لما قامت الثورات التي أعقبت فتح مراكش يبدو أن الجهة ظلت؛ على العموم، وفية للموحدين، فقد كانت طريق القائد يصلاسن الموجه لبرغواطة[15]، وإليها لاتجأ أبو حفص عمر لما انهزم أمام برغواطة حيث هبط "باوللاده إلى تادلا وجدد عسكرهومشى إلى مكناسة ونزل عليها وحصرها"[16]، لكن بعض القبائل فضلت الثورة مثل: هسكورة السهل التي ساندت الماسي وتدخل أبو حفص وهدنها[17]، وإيملوان تازرفت وصنهاجة وجراوة وكلها عوقبت في الاعتراف حيث قتل منها حوالي

---

[13]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص.186.
[14]- أخبار المهدي، ص.49-50.
[15]- نفسه، ص.68.
[16]- نفسه، ص.67.
[17]-ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص.311.

ألفي رجل[18] في نظير وتفسرت والعمرى[19]. وبعد ذلك استقرت المنطقة وأسند عبد المومن ولايتها لابنه أبي الربيع عام 548هـ/1153م[20].

وفي عهد أبي يعقوب يوسف شهدت الجهة ثورات وتمردات اهمها ثورة عتاب في داي عام 559هـ/1164م والتي لا نعرف عنها إلا أشياء قليلة جدا وانتهت بتخريب داي وتشتيت أتباعه[21]، وثورة إدريس بن بطان الصنهاجي وأخيه عطية وأغارا على تادلة ونهباها وألحقا هزائم بجيوش بجيوش الموحدين مما اضطرهم إلى بناء حصن تكرارت وتعميره بجنود مغاربة وروم[22]، وثار شخص يدعى بوسردون لكن صنهاجة قتلته وساقت رأسه وبغله إلى ألخليفة [23]، وفي عهد المنصور تواطأ عمه أبو الربيع واليه على تادلة مع قبائل صنهاجة أثناء وجوده في إفريقية من أجل الثورة لكنه اكتشف أمره فأخذه وقتلة عام 584هـ/1189م[24].

وفي عهد المنصور عرفت الجهة حدثا خطيرا سيؤثر على مستقبلها وتوازن القوى بها، حيث هجر القبائل العربية من إفريقية ووزعها على مناطق البلاد وكان نصيب المنطقة من قبائل الخلط وخاصة بنو جابر الذين استقروا في الدير الجبلي ودخلوا في تحالف مع القبائل المحلية خاصة صنهاجة[25].

وتحولت المنطقة على عنصر فاعل عندما تفجرت الأوضاع في الدولة الموحدية حيث اختارت في معظم الأوقات جانب المعارضة. وقد

---

[18]- نفسه، ص.67 و71.
[19]- نفسه، ص.71.
[20]- نفسه، ص.77.
[21]- ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1984، ص.465-466.
[22]- البيذق، المصدر السابق، ص.85.
[23]- نفسه.
[24]- ابن عذاري، المصدر السابق، قسم الموحدين، تحقيق محمد زنيبر وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985، ص.199-200.
[25]- بوسلام، المرجع السابق، ص.47.

تحالفت هسكورة بزعامة عمر بن وقاريط وقبائل الخلط تحت قيادة يحي بن هلال بن حميدان[26].وعارضوا العادل الذي نظم حملة ضدهم عام 624هـ/1227م[27]ن وساندوا يحي بن الناصر[28].ولما نجح المامون على الخلافة في مراكش اضطرت هسكورة والخلط بقيادة هلال بن مقدم إلى اللالتحاق به ومساندته دون إخلاص[29].واستمر الأمر في عهد الرشيد، لكن عمر بن وقاريط الذي كان يتوجس من غدره يوطد حلفه مع مسعود الخلطي ثم فر من مراكش والتحق بيحي بن الناصر[30]. ونظم الرشيد حملة ضد هسكورة عام 631هـ/ 1233م لكنها لم تحقق أي نجاح[31]، ثم قتل بالقصر مسعود بن حميدان الخلطي وأجلى الخلط إلى السوس[32]. أما ابن وقاريط فاستنفر "هسكورة ومزالة وجلاوة ومن في هذه الجبال من خيل ورجل لقصود مراكش"[33]، وجدد حلفه مع الخلط بقيادة يحي بن هلال بن حميدان، فانطلق الحلفاء في حملات تخريب ونهب للحوز انتهت بالتضييق على مراكش وإجبار الرشيد على مغادرتها، بينما دخلها يحي خليفة تحت وصاية ابن وقاريط الهسكوري وعرب الخلط عام 632هـ/1234م[34].لكن عودة الرشيد في السنة الموالية أعاد الجهة إلى المعارضة. وحاول الرشيد إخضاع هسكورة بحملة سنة 639هـ/1241م لكنه فشل وبقيت على موقفها[35]. ونجح السعيد وبعده المرتضى في ضم

---

[26]- ابن عذاري، قسم الموحدين، ص.318.
[27]- نفسه، ص.273.
[28]- نفسه، ص.274.
[29]- نفسه، ص.303-304.
[30]- نفسه، ص.303-305.
[31]- نفسه، ص.305.
[32]- نفسه، ص.315 و358.
[33]- نفسه، ص.306.
[34]- نفسه، ص.318 و328.
[35]- نفسه، ص.358.

الخلط وهسكورة دون إخلاص كبير[36]. وشارك يعقوب بن محمد قيطون الجابري في حملة تلمسان، لكنه خذله مع آخرين ونهبوا محلته قبل بني عبد الواد[37]. وقرب المرتضى الجابري ومنحه أملاكا وأسهاما بالحوز لكنه لم يرض بذلك لأنه فضل عليه يعقوب بن جرمون السفياني وولاه على العرب فاظهر الفساد فتم القبض عليه وسجنه عام 652هت/1254م[38]. وعوضه بنو جابر بعمه إسماعيل بن قيطون مواصلين معارضتهم[39].

ولما ثار أبو العلى أبو دبوس التجأ إلى جبال هسكورة وحظي بدعم أبي عثمان مسعود بن جلداسن الهسكوري[40] الذي جمع قبائل الموحدين في الجبال وكذلك رجالهم بمراكش خلفه[41]، وأكثر من ذلك ضم إليه حلفاءه الخلط مما أجبر المرتضى على سجن وقتل إسماعيل بن قيطون الجابري أحد قواده عندما حاول الفرار من مراكش. ورد أخوه بإعلان ثورته وبيعته لأبي دبوس عام 664هـ/1265م[42].

وبعد تولي أبي دبوس الخلافة اختلف مع أبي عثمان مسعود بن جلداسن الهسكوري وحاول إخضاع هسكورة بالقوة بحملة تأديبية، لكنه انسحب بعد حوار بين الطرفين راضيا بطاعة غير كاملة من ابن جلداسن الذي بقي ممتنعا في جبله[43]. وعلى هذه الصورة المعارضة انتقلت الجهة إلى العصر المريني.

يظهر من نص لابن أبي زرع أن يعقوب المنصور المريني ضم تادلة عام 667هـ/1268م عندما نظم حملة "غزا بها عرب الخلط، فأكلهم

---

[36]- نفسه، ص.360.
[37]- نفسه، ص.405.
[38]- نفسه، ص.405.
[39]- نفسه، ص.436.
[40]- نفسه، ص.450.
[41]- نفسه، ص.436.
[42]- نفسه، ص.436-437.
[43]- نفسه، ص.465.

وسبى حريمهم وأموالهم(...) ثم غزا بلاد صنهاجة وسباها."[44] ومنذئذ صارت قبائل الجهة ضمن جيش بني مرين وشاركت في الجهاد في الأندلس[45]. وبعد أبي عنان بدأ الشغب في المنطقة، حيث ثار الحسن بن عمر الفودودي في تادلة بدعم من بني جابر على أبي سالم قبل أن يعتقل[46]. كما دعم بنو جابر وآووا أبا الفضل بن أبي سالم الثائر على السلطان عبد العزيز عام 669هـ/1270م[47]. واستمرت المنطقة على هامش الأحداث، بل وتحولت في أواخر عهد الوطاسيين إلى منطقة صراع وثغر بينهم وبين السعديين المستقرين في مراكش. وقد انضمت هسكورة إلى السعديين قبل932هـ/ 1526م واتخذ الوالي السعدي دمنات مقرا له[48]، أما تادلة وأراضي صنهاجة فضمت بعد معركة بوعقبة[49].

هكذا يلاحظ أن حضور الجهة في تاريخ المغرب الوسيط كان باهتا في معظم الأوقات عدا الفترة الموحدية التي شهدت حضورا قويا وفاعلا في بعض الأوقات.

---

[44]- الأنيس المطرب، ص.30.
[45]- بوسلام، المرجع السابق، ص.48.
[46]- نفسه، وعمالك، المرجع السابق، ص.2004.
[47]- نفسه.
[48]- التوفيق، المرجع السابق، ص.82.
[49]- بوسلام، المرجع السابقن، ص.49.

ملحق:

فتح عبد المومن لجهة تادلة –أزيلال عام 535هـ/1141م

(البيذق، أخبار المهدي، 49-50).

"ومنه لموضع يقال له وفاد [أرض مسفيوة] ومنه لموضع يقال له أشبار، فلما سمع تاشفين بنا نزل بأشبار ونحن بموضع يقال له تاساوت، ثم منه لموضع يقال له دمنات، وقام تاشفين ونزل على يملٌلو، ثم قمنا منه لموضع يقال له بنو نصر وتاشفين بكوية، ثم قمنا نحو الفل متاع كوية، فخرج الشيخ أبو حفص عمر إينتي بعسكر رجالة دون خيل، فغنم ورجع، ثم قلعنا منه لموضع يقال له واويزغت، ساق لنا فيه صنهاجة المروة وتاشفين بموضع يقال له موران يغيال ثم التقى الجيش بالجيش بموضع يقال له تيزي، فهزمنا الفئة الباغية(...)

ثم هبطنا لموضع يقال له تاكرارت متاع داوود بن عائشة، ثم خرج منا جمع فأكل تاكرارت، فأقبل بغنائمها، ثم رحلنا منها لموضع يقال له داي، وكان بها على بن ساقطرا، فلما وصلنا بقربها هرب وغنمنا داي، فتكلمت صنهاجة وقالوا له يا أمير المؤمنين رد صنهاجة فإنهم كلهم موحدون، فردهم حاشا والدة السيد أبي سعيد، ثم قلعنا منها لويفيفن، ثم منها لمكدار، ثم منها نحو تين طوين، ثم منها نحو تيزي متاع تازكارت، فالتقينا بها يحي بن ساقطرا وهزمناه وأخذنا خيله وأعطاها أمير المؤمنين لصنهاجة، ثم منها لموضع يقال له واوما، فالتقينا يحي بن سيركان بالقلعة، فتقاتلنا معهن وانصرف كل منا عن صاحبه، ثم سرنا نحو أزرو، فهرب منا أخوه على إليه، فدخلنا أزرو وسكنا به وأخذ الخليفة أم عبد الله."